على حافة الموت.. كنا ستة عشر
الكاتب : وائل زهراوي
التاريخ : 18 يوليو 2017 م
المشاهدات : 7466

وفي الزنزانة التاسعة عشرة في مطار المزة العسكري فرع المخابرات الجوية كانت ملامح عبد الخالق حين عاد سليماً من التحقيق على غير عادتة توحي أن دماً سورياً جديداً سيسفك تلك الليلة.

فنحن من جيلٍ كَبرَ قبل أن يولد . وحين ولد وجد أباءه لازالوا يَحْبونَ بقربه.

ولأن الزنزانة كانت بالأصل زنزانة فردية كان نصفنا يقفُ بينما يجلس النصف الآخر لكي نستريح قليلاً.

وما ان التقت عيناي بعيني عبد الخالق حتى ألصق وجهه بالجدار كأنه يختبئ فيه .وآخر ما أردته في حياتي أن تكون نهاية عبد الخالق تحت الجادر . .... !!

ولاح لي هول فقدان عبد الخالق ذاك الشابُ الحمصيُ النبيل. فرغم كل قطع اللحم التي أخذوها من جسده كان يتحداهم بما تبقى منه . لا ينهار تحت التعذيب، تشعر بمجرد أن تقف أمامه أنكَ تعاين رجلاً حقيقياً و سورياً أصيلاً و شجاعاً لا يخاف الموت .

حين اقتربت منه بما فيه الكفاية لأهمس له عبد الخالق ماذا بك لم لا تتكلم ماذا فعلوا بك ماذا قالوا لك !

رد عليّ بفيضٍ من دموع كَسرت أحداقه وسالت على وجهه ولحيتهِ الشقراء التي تُخبئ خلفها أشهراً طويلةً قضاها هناك قبلي وعمراً لم يتجاوز الثامنة والعشرين . واختنق ببكاءه وغصَّ وهو يقول :

خيي وائل قالولي (((عالجادر .)))

ونظر إليّ. فشعرت أنه اخترق قلبي كأنه يعاتبني فمنذ وصولي وأنا أردد عليه أننا سنخرج يوماً من هناك وأننا سنتظاهر من جديد وأننا لن نموت هناكَ أبداً وأن من هم في الخارج لم ينسونا أبداً !

لكني بعد أن عرفت أنهم سيضعونه تحت الجادر تجمدت بمكاني وتوقف الزمن الذي كنا نعد ثوانية ننتظر الخلاص موتاً سريعاً أو حريةً بعيدة ولم َنَنَل سوى الوحدة والنسيان والموت الأحمر

هناك حيث كان يقبع رجالٌ سوريين كأوطانٍ بأكملها لكنهم دون أسماء لا يعرفهم أحد أبداً رحلوا بصمت مهيب .

صمت يشبه كبرياء الشهيد حين يسقطُ مضطرجاً بإيمانه ويغمر جبينهُ التراب وهو بذاتِ اللحظة يعانقُ السماء لأنه قدم روحه وهل بعد الروح شيء .

و كم هو الفرق بين أن تقرأ المأساة وبين أن تكون فيها . وأن تكتب الفاجعة وأن تمر منها .

((الجادر)) هو اسم يعرفه السوريون لقماش سميك يصنعون منه الخيام وأغطية السيارات الكبيرة فهو قوي لا ينفذ منه الماء ولا يتمزق بسهولة

وحين ابتدع المسوخ تلك الطريقة في القتل طبقوها علينا عشرات المرات .

حيث كان يؤتى بالمعتقل عارياً ومعصوب العينين يفكون له يديه ورجليه من الأغلال يرمونه على الأرض ليستلقي في وسط الغرفة ثم يغطونه بالجادر ويربطون أطراف الجادر بزوايا الغرفة فتصبح ارض الغرفة كلها مغطاة بالجادر والمعتقل تحته .

ثم يبدأون بضربه بكل شيء من حديد . القضبان الحديدة والمطارق والبواري وأنابيت التمديدات الصحية وبعضهم كان يأتي بأحجار والهدف من ذلك كان شيئين :

الأول : أن الجادره يمنع رشقات الدم التي تنفر من أجساد المعتقلين التي تكون بالأصل مهترئة ومملوءة بالقيح تحت جحيم ضرباتهم أن تصل إليهم .

والثاني : أنهم يتنافسون فيما بينهم ليروا من هو الأقوى بينهم بالضرب بحيث يجعل المعتقل يرسم أشكالاً غريبة تحت الجادر كأنه يمثل .

بينما صوته يتحول لعويل في ذاك القبر الأخير .

وكلما دفعَ الألم المعتقل أن يهرب باتجاه ما تجمعوا له بذات الإتجاه ليمطروه بالضربات التي تكسّر المُكَسرْ من عظامه أضعافاً مضاعفة

فيقع عليه بذات اللحظة قَضيبٌ من حديد يكسرُ أضلاعه وحجرةً كبيرة تُفتتُ ركبتيهِ ومطرقة يدقُ بها أحدُ المسوخِ وجهه ليكسرَ بها أحد محاجر عينيه . والمعتقل يصرخ ويتقلب بينهم وهم يضحكون ويمرحون .

ومشان السيد الرئيس خود هي يا خاين . !

ولماذا يحضر فيهم الرئيس ويغيب الوطن . ولماذا يغيب فينا الشخص ويحضر الوطن .

ولماذا مددنا نحو الحرية جسوراً صنعناها من لحومنا ودماءنا . بينما حفروا هم خنادق حول رئيسهم المعتوه كي يعبدوه إلى الأبد .!

و ليجعلوا تحت الجادر من الأمتار القليلة التي هي مكان تحرك المعتقل بقعة من العذاب لايمكن أن تصفها كل لغات أهل الأرض لو اتحدت معاً ولا يليق أمامها سوى الصمت فقط .

إن قيمة الأوطان ليست بما تملك . بل بما تنجب من أبنائها الذين يخطون اسمها على صفحات التاريخ بالتضحيات

.. وإن قيمة الإنسان ليست بما يحوز بل بمدى إيمانه بقضيته التي يقدم لها روحه وهو يبتسم . وأي قضية أطهر من وطنكَ لتؤمن به .

ومن أكثر منا نحن السوريين فعل ذلك ....

بعد أقل من ساعة استدعونا للتحقيق وكنا ستة عشر مكبلين بسلسلة واحدة . ضغطت علي يدِ عبد الخالق فإسمه لم يأتي معنا وعرفتُ مصيره ورأيت ذاك بعينيه تركوه في زنزانتنا ليلتهموه وحيداً .

افترقت يداي من يديه بعد أن خرجت مع باقي المعتقلين لأتركه خلفي . لكنه لايزال أمامي حتى أموت .

الخامسة صباحاً حين عُدنا من قسم التحقيق كُنت مَملوءاً بأمل أن تكون معجزة حصلت وأجد عبد الخالق حياً

لكن الأمل بدأ يتبدد رويداً رويداً حين بدا لي الجادر وعليه جسده الغض الجميل .

عبد الخالق كان ممحيّ الملامح تماماً وجههُ كان قطعةً مهروسة من اللحم الممزوج بقطع الدم قلعوا عيناه واختلط ماء بصره بالدموع التي ذرفها قبل الموت .

ويداه مكسورتان وأضلاعه بعضها ظاهر بعد أن كشطوا لحم صدره كله .ورُكَبُ رجليهِ شقت لحمه وخرجت تنادي عليكم أيها السوريين أو على ما تبقى منكم .

ومرت أمامي كل الثواني التي مضت مع عبد الخالق ذاك الجبل السوري الشامخ كان يقول لي وائل الزهراوي من عنا من حمص ..مانك من حلب !

وكنت أقول له أنت ملامحك أوربيه لست عربيا . فكان يغضب ويقول أنا عربي وسوري وحق هدول ويشير إلى حفر ذراعه التي يظهر منها عظامه من آثار التعذيب . ثم يبتسم طويلاً . ويحدق في سقف زنزانتنا

وقعتُ من عظيم مُصابي بعبد الخالق على ركبتيّ حين رأيته . لكن كبل الدبابة على ظهري أقامني من جديد .

وكم من عبد الخالق مضى لأجل الوطن ولم يَكتب عنه أحد ولم يعرف عنه أحد .وكم من سوري مضى شامخاً إلى مصيره بصمت وهدوء دون كل هذه الضوضاء .

بقي عبد الخالق يوماً كاملاً هناك قبل أن يحملوا جسده الطاهر إلى المجهول

والبعض لا يحتمل حتى أن يقرأ كلمات عن أولئك السوريين ولا يريد أن يصدق فداحة الحقيقة وعمق إجرامهم .

و قبلَ أن نستسلم علينا أن ُنفكر . كيف استطعنا أن نصمدَ كل ذاكَ الوقت .!

لنعرف أننا صمدنا بدم عبد الخالق وسواه من السوريين الشرفاء . السوريين الذين قدموا كل شيء ولم يأخذوا أي شيء .

إن حياتي كلها وكل ما ذقته من عذاب لا تساوي غباراً كان يسكن حول جسد عبد الخالق الذي ذاق الموت الأحمر تحت الجادر فداءً للحرية.

و يا من تتقاسمون الوطن حتى قبل أن تحرروه هل فكرتم للمحه إن كنتم حقاً تستحقوه . !

إن أهم مافي الموت أنه يعطينا قيمة الحياة .

وإن حياة أولئك السوريين الذين لم تنجب النساء مثلهم كانت أساطير لم يعرف التاريخ مثلها .

وذلك لأن كل الرجال العظماء ذاقوا في حياتهم ألما عظيماً وحُزناً عظيماً لكن تلك كانت أقدارهم !

أما أولئك السوريين فقد كان اختيارهم وبمحض إرادتهم الخالصة تقدموا للفداء واختاروا التضحيةَ فكانوا أعظم من مر في تاريخ نضال الشعوب .

في القانون نقول المتهم بريئ حتى تثبت إدانته ... لكني في الثورة أقول اليوم غير ذاك .

فكلنا خونة إن تركنا قطرة دم واحدة من دمائهم تذهب هباءً .

وكلنا خونة إن نسينا قضيتنا واستسلمنا للبكاء . و كلنا خونة إن سامحنا أو رضينا أو عفونا أو تنازلنا عن صرخة واحدة صرخناها . فسوانا دفع حياته كلها ثمناً لها .

ويا أيها العائدون لحضن النظام لا تخبروني ماذا فعل النظام بكم . أخبروني لم اختاركم أنتم بالذات لتعودوا إليه !!

عبد الخالق البارحة حلمتُ بك يا أخياه .

ووالله لازالت ابتسامتك ولحيتكَ الشقراء تطلان على حياتي كالوطنِ حين يجتاحني الحزن العتيق على أؤلئك السوريين الخالدين .

ووالله لو خان كل أهل الأرض دمك يا أخياه.

ثق أن هناك سوريين شرفاء. الإباء طبعهم والإخلاص شيمتهم سيبقى ضياء تضحياتكم في صدورهم يتوارثونه جيلاً فجيلاً.

ولن ننساكم يا أيها السوريين الأحرار ما دمنا أحياء . فإن متنا فلن ينساكم رب السماء .

فارقدوا بسلامٍ آمنين يارفاق العذاب فالأوطان لا يفديها الجبناء.

المصادر: